

السمات التي تلتف تلك القصص جميعاً عدا بعض الاستثناءات القليلة جداً، بل أكاد أجزم أن (دون كيشوت) كرواية هي العمل الوحيد الذي محا عن جدارة كل ما سبقه من قصص وروايات الفروسية الأسبانية، وهو العمل الوحيد الذي أعلى من شأن النبيل والإخلاص للهدف والمبتغى دونما عوائد أو منافع دنيوية.

ويسبب من الإيمان الكامل بهذه المهمة المقدسة التي يقوم بها دون كيشوت يتناسى الرجل ضعفه، وشيخوخته، وعدم تأهيله ليكون فارساً حقيقياً، كما أنه لا يرى خصمه المواجه له قوياً، أو كثير العدد، أو شديد الشراسة، كما أنه يغفل عن كل الغنائم ويزهد بها، بل لا يفكر بها أصلاً؛ من هنا تتبع قوة شخصية دون كيشوت وحضورها الدائم أيضاً، فهي شخصية، من الخطأ توصيفها بالبلاهة والخيال الأجوف، أو التهريج والسخرية، لأنها شخصية ملأى بالنبيل والإخلاص للرؤى البعيدة المنال. إنها شخصية المجذوب المبارك الذي يبدو سلوكه مغايراً لسلوك الآخرين، وأحاديثه مدهشة، ورؤاه بعيدة في طموحاتها وتصوراتها ودلالاتها أيضاً عن كل ما حولها، فالقسيس يستغرب تصرفات دون كيشوت وسلوكه، وأصحاب المهن، والفرسان، والتجار، والنساء، وعمال الخانات والفنادق، ورجال البلاط، والدوقات.. كلهم يتهمون دون كيشوت بالجنون، والذين يبدون تفهماً لوضعه وسلوكه يرونه طريفاً ومسلياً، ويستتبعون ذلك بالسخرية المؤذية من طبيئته التي يحسون أنها (سانجة وشاذة). فما يريده دون كيشوت من الإنسان هو أن يكون طيباً، طيباً وحسب دونما منافع أو أسباب، غير مهتم بما يقال عنه أو يوصف به أو يثار حوله.

لقد عرّفَ الناس في الخانات والفنادق كما عرف أصحابها فلم يعاملهم إلا باعتبارهم نماذج النبيل المشتبه، وعرّف القصور وأهلها ورجال البلاط أيضاً فلم يلتفت إلى سخريتهم المرّة، ولم يعبأ بها لأنه ينظر إلى أن منبع السخرية هو الروح الشيطانية، والمؤمن (أو المسيحي المؤمن) لا يسخر من الناس من أجل الشماتة أو الإهانة والأذى، وهو لا يريد أن يرى طيوف السخرية الشيطانية حاضرة في المجتمع، بل إن دون كيشوت حاول في مرات عديدة أن يلجم سانشو عن السخرية باعتبارها فعلاً مؤذياً للروح، غير أن سانشو، وفي كل مرة كان يخلف وعده بالإقلاع عن السخرية، إذ لا يلبث أن يعود إليها في المغامرة الجديدة لإحساسه بأن ما يحدث لا يليق به سوى السخرية، وقد عنفه دون كيشوت في إحدى المرات وضربه وهو يقول له: لا لماذا تسخر، فأنا لا أسخر! بعدما سخر منه في أعقاب مغامراته مع طواحين الهواء، وقطيع الأغنام، والاستيلاء على